فصلٌ في قِصَّة زكريَّا وَيحيى عَليهمَا السَّلام[١]

ذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» عن ابن دريد أنه قال: زكريا اسم أعجمي[٢].

واختلفوا في نسبه: فقال الثعلبي: هو زكريا بن أدن[٣] بن مسلم بن صدوق بن نحشان[٤] بن داود بن سليمان بن صديقة بن برخيا بن ناحور بن شلوم بن يهعاياط[٥] بن أُسا بن أبيا، أو أسا بن رُحُبْعم بن سليمان بن داود عليه السلام[٦].

وقيل: زكريا بن أدن بن يوحنا بن رحيا من ولد سليمان عليه السلام.

وفي الصحيح: أنه كان نجاراً. قال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريا نجاراً». انفرد بإخراجه مسلم[٧].

وقال وهب: وكان زكريا قد تزوج أشياع بنت فاقود أخت حنَّة أم مريم. وقال السُّدِّي: أشيع هي بنت عمران أخت مريم. وهو وهم منه، والأول أصح، ذكره الثعلبي وغيره.

وقال مقاتل: وحنة هي التي قال الله في حقها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾[آل عمران: ٣٥].

---

(١) في (ب): الباب الثامن والعشرون في قصة زكريا . . . . ومن هنا تبدأ النسخة الخزائنية والتي رمزنا لها بـ «خ»، وانظر لهذه القصة «تاريخ الطبري» ١/ ٥٨٥ و«البدء والتأريخ» ٣/ ١١٦، و«عرائس المجالس» ص ٣٧٣، و«التبصرة» ١/ ٣٣٩، و«المنتظم» ٢/ ٥ـ٦ـ٧، و«الكامل» ١/ ٢٩٨، و«المختصر في أخبار البشر» ١/ ٣٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٣٩٣.

(٢) «المعرب» ص ٢١٩.

(٣) في (خ): أردن، وفي تفسير الثعلبي ٤/ ١٦٧: أذن، والمثبت من (ك) و(ب)، وانظر البداية والنهاية ٢/ ٣٩٤.

(٤) كذا في النسخ، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: يحسان، وفي تاريخ دمشق ٦/ ٤٢٦: محيمان، وانظر البداية والنهاية ٢/ ٣٩٥.

(٥) في (خ): بهاياط، والمثبت من (ب) و(ك)، وفي الطبري ١/ ٥٨٦: يهشافاط، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: ثهفاساط، وفي البداية ٢/ ٣٩٥، وتاريخ دمشق ٦/ ٤٢٦: بهفانيا.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.

(٧) أخرجه أحمد (٧٩٤٧)، ومسلم (٢٣٧٩).

وعمران: هو ابن ماثان، وليس بعمران أبي موسى. وقال ابن عباس: بينهما ألف وثمان مئة سنة، وكان بنو ماثان ملوك بني إسرائيل وأحبارهم[١].

ويقال: ماثان من ولد داود.

وقال مقاتل: ذكر الله عمران في ثمانية مواضع.

وقال ابن إسحاق: هو من ولد رُحُبْعُم بن سليمان عليه السلام.

وقال وهب: وكانت حنة قد نذرت حملها لله محرراً، أي: خالصاً، لخدمة بيت المقدس، وكان المحرر لا يفارق الكنيسة حتى يحتلم، ثم يُخيَّر، فإن أحبَّ المقام أقام، وإن أراد الخروج بعد التحرير لم يكن له ذلك، ولم يكن يُحرَّر إلا الغلمان دون الجواري، لما يصيبهن من الحيض والبلاء والأذى، فحرَّرت أم مريم ما في بطنها. هذا قول وهب[٢].

وقال الكلبي: كانت حنَّة قد أسنَّت ويئست من الولد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينا هي يوماً في ظلِّ شجرةٍ رأت طائراً يزقُّ فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، وسألت الله ذلك، وقالت: هو لبيت المقدس. ولم تعلم بما في بطنها، فقال لها زوجها: ما تصنعين إن كان الحمل أنثى؟ يعني: أنها لا تصلح للتحرير. ومات عمران وهي حاملٌ بمريم، فلما وضعتها انكسر قلبها واعتذرت إلى الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ يعني النذيرة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي في خدمة الكنيسة، فإن قيل: فقد علم الله أنها أنثى. قلنا: إنما قالت ذلك من باب الاعتذار، ولأن الأنثى لا تصلح للخدمة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[آل عمران: ٣٦] وهي بلغتهم: الجارية[٣] العابدة[٤].

وقد شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية، فقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمير بإسناده عن عبد الله بن جعفر عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيرُ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.

(٣) في (ك) و(خ): الخادمة.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤ـ٣٧٥، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.

نِسائها مَريمُ بِنتُ عِمرانَ، وخَديجَةُ بنتُ خُويلدٍ»[١] متفق عليه.

وقال أحمد بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن مَولُودٍ يُولَدُ إلا والشَّيطَانُ يَمسُّهُ حين يُولَدُ، فَيَستَهِلُّ صَارخاً مِن مسِّ الشَّيطَان إيَّاهُ إلا مَريَمَ وابنَها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ متفق عليه[٢].

وفي المتفق عليه: «كُلُّ ابنِ آدمَ يَطعُنُ الشَّيطَانُ في جنبيهِ حِينَ يُولدُ غير عيسى بنِ مَريمَ، ذهب يَطعُنُ فيه فَطعَنَ في الحِجَابِ»[٣] أي: في المشيمة، والاستهلالُ: رفع الصوت.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[آل عمران: ٣٧] أي: رضيها للتحرير وأنبتها نباتاً حسناً، فكانت تشبُّ في كل يوم كما يشب غيرها في شهر، وفي شهر كما يشب غيرها في سنة.

وقال وهب: ولما وضعتها لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، فوضعتها بين يدي الأحبار أبناء هارون، وهُم يومئذٍ يَلُونَ أمر بيت المقدس كحَجَبة بني شيبة للكعبة. وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها. فقالوا: لا نفعل، ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه. فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين إلى نهر الأردن قريباً من أريحا، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة والزبور في الماء، وقال الزجاج: هي قداح عليها علامات يعرفون بها القرعة، وإن قيل لها أقلام لأنها تُقلم وتُبرى[٤]. فأرن قلم زكريا، أي: صار له رنين، ووقف، فجرت أقلامهم مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية، أي: ارتفع عليها. فقرعهم زكريا وكفلها، والكفالة: الضم، واسترضع لها زكريا، وقيل: إنما ضمها إلى خالتها أم يحيى. فلما بلغت مبالغ النساء بنى لها

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٠)، والبخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٧٠٨)، والبخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٣٦٦) عن أبي هريرة.

(٤) انظر «معاني القرآن» ١/ ٤١٠ـ٤١١.

محراباً في المسجد، وجعل بابه في مكان لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة. وما كان يصعد إليها سواه، ومعه المفتاح، وكانت إذا حاضت أخرجها من المسجد إلى منزله، تكون مع خالتها، فإذا طهرت ردَّها إلى المسجد.

وقال ابن إسحاق: وإنما أدخلها المسجد من أجل نذر أمها. قال: وإنما اقترعوا عليها بعدما بلغت[١].

وأصاب الناس سنة، فعجز زكريا عنها، فشكا إلى بني إسرائيل، فجعلوا يتدافعونها بالقرعة، فخرج السهم على يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن عمها، وكان فقيراً، يأتيها باليسير، فرأت في وجهه شدة المؤونة عليه، فقالت: يا يوسف، أحسن الظنَّ بالله، فإنه سيرزقنا. فكان الله يثمِّرُ ما يأتي به. وهذه رواية ابن إسحاق. وعامة العلماء على أنَّ زكريا كفلها، ولم تزل عنده يأتيها بطعامها وشرابها، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب على باب المحراب، وهو الغرفة، فإذا عاد وجد عندها رزقاً. قال ابن عباس: فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء من ثمار الجنة، فيقول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[آل عمران: ٣٧]. وقال ابن عباس: تكلمت وهي صغيرة[٢].

فإن قيل: فمريم بنت عمران يأتيها رزقها رغداً، وفاطمة بنت محمد ﷺ تطحن حتى يؤثر الطحن في ذراعها؟ فالجواب: أن مريم كانت مفتقرة إلى وجود آية تستدل بها على براءتها من وجود ولد من غير أب كما في الفاكهة في غير أوانها، أما فاطمة فمنزهة عن مثل هذا، فلا تحتاج إلى آية تدل على براءة ساحتها.

قال ابن إسحاق: ولما رأى زكريا هذا تحركت نفسه إلى طلب ولد، وكان قد كبِرَ وأسنَّ وانقرض أهله، فقال: الذي هو قادر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير أوانها من غير سبب، قادر على أن يرزقني الولد بأن يصلح لي زوجتي كذلك. فذلك قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ الآية [آل عمران: ٣٨] ﴿قَالَ رَبِّ﴾ معناه: يا ربي، ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[مريم: ٤] أي: انتشر فيه الشيب كما ينتشر شعاع

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٥ـ٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١ـ٢٠٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠٢ـ٢٠٣، و«زاد المسير» ١/ ٣٧٩ـ٣٨٠.

النار في الحطب.

قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ وهم: بنو العم والعصبة، خاف أن يتولوا صحائف علومه ونبوته.

وقيل: إنما سأل الولد، ليساعده على عبادة ربه، فإنه كان فرداً فطلب الولد.

وذكر السُّدِّي: أنه خاف أن يتولوا ماله على وجه الميراث. وهو وهم منه، فإن الأنبياء لا يخلفون ديناراً ولا درهماً بالحديث[١]، فسأل الولد لئلا ينقطع ذكره، ولا يموت العلم.

وإنما قال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾[مريم: ٥] ولم يقل: عاقرة، لأنه أجرى الكلام مجرى حائض وطالق، والعاقر من النساء والرجال مَن لا يولد له. قال ابن عباس: وكان ابن عشرين ومئة سنة، وامرأته بنت ثماني وتسعين سنة[٢].

فإن قيل: وأين زكريا من يعقوب بينهما دهر طويل؟ قلنا: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن جميع بني إسرائيل من نساء يعقوب.

والثاني: أن المراد به: يعقوب بن ماثان، وهو أخو زكريا، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لما قرأ هذه الآية: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثة»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾[مريم: ٧] فإن قيل: ففي مريم هذه الآية، وفي آل عمران [الآية: ٣٩]: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ فقد حصل المقصود بالبشارة الأولى، فما الفائدة في الثانية؟ قلنا: هو تأكيد للبشارة، وليعلم أن الله قد أجاب سؤاله فيفرح.

وقال ابن عباس: دخل عليه المذبح شاب من أحسن الشباب، فخاف منه فقال له: لا تخف أنا جبريل وبشره.

---

(١) وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا ديناراً ولا درهماً» أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥).

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٦٤/ ١٧٢ عن قتادة مرسلاً.

و«يحيى» لا ينصرف للمعرفة. وقال ابن عباس: أحيا الله به عَقْر أبويه بين شيخ وعجوز. وقال الزجاج: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والتقوى والنبوة والحكمة. وقال مقاتل: بالعصمة، فلم يهمَّ بالمعصية. قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن أحدٍ يَلقَى الله يَومَ القِيامَةِ إلا وقَد همَّ بمعصيَةٍ أو عَمِلَها إلا يَحيى بنَ زكَرِيَّا، فَإنَّه لم يهمَّ ولم يَعملها»(١).

وقال عمر بن عبد الله المقدسي: كان اسم سارة يسارة، فأوحى الله إلى الخليل عليه السلام إني مخرج منكما عبداً لا يموت بمعصيتي اسمه حيٌّ، فتهب له سارة من اسمها حرفاً، فوهبت له الياء من أول اسمها، فصار يحيى وصارت يسارة سارة(٢).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إن الله لم يُسمِّ أحداً قبله بهذا الاسم تشريفاً له، ولم يكل تسميته إلى أبيه وأمه. وقيل: لم يجعل له مثلاً وشبهاً.

وقال مقاتل في قوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ٣٩] قال: هي عيسى، قال له: كن فكان(٣).

واختلفوا في معنى: «الحصور»:

فقال قوم: هو الذي لا يأتي النساء، لأنه ما كان له آلة.

قلت: وهذا ذم لا مدح، لأن الفضيلة أن لا يأتي النساء مع القدرة إلا أن يكون عِنِّيناً، وقد حكى الماوردي: أن الحصور: هو الذي يمنع نفسه عن شهواتها مع القدرة(٤). وهذا وجه حسن بخلاف الأول.

وقيل: هو الحليم.

وأصل «السيد» من ساد يسود إذا رأس وعلا، وهو اسم جامع للخصال المحمودة،

---

(١) (٢) أحمد في «مسنده» (٢٢٩٤).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٧.

(٤) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٣.

(٥) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٤.

وقد ذكرنا في «التفسير» تمام الآيات.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه سأل آية أي: علامة على وجود الولد، فقيل له ذلك. والرمز بالشفتين والحاجبين والعينين، واعتقل لسانه.

والثاني: ذلك عقوبة له بعد ما شافهته الملائكة بالبشارة.

وقال قوم: لم يعتقل لسانه، وليس بشيء، لأن الله يقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[مريم: ١١]. قال ابن عباس: كتب إليهم في كتاب. وقال مجاهد: أومأ برأسه. وقال مجاهد أيضاً: ولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر، وكان ابن خالته. ويحيى أول من آمن بعيسى عليه السلام.

وقال ابن وهب: كانت أم يحيى حاملاً به فاستقبلتها مريم وهي حامل بعيسى فقالت لها أم يحيى: أنت أم عيسى، أنت حامل، قالت: ولِم؟ قالت: لأني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك[1].

قلت: لا ينبغي السجود إلا لله تعالى.

وقال السُّدي: ولد يحيى عليه السلام في أيام أردشير بن بابك. وقيل: في أيام سابور بن أردشير، والله أعلم.

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

ذكر وهب وغيره: أن مريم لما حملت بعيسى عليهما السلام اتهمت اليهودُ زكريا بها، فلما استبان حملها، طاف إبليس مجالس بني إسرائيل فقذف زكريا بمريم، وقال: ما كان يدخل عليها إلا هو، وهو الذي أحبلها، فطلبوه، فهرب، فأتى وادياً كثير الأشجار، فأتاه إبليس في صورة راعٍ فقال له: قد جاءك القوم، فادع ربَّك أن يفتح لك شجرة، فادخل فيها. ففعل. وجاء القوم، وقد بقي هدب ثوبه، وقيل: بل أخذ به إبليس. فقال لهم إبليس: ها هنا دخل، فركَّبوا عليه المنشار، وشقُّوه نصفين كما فعلوا بشعيا،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٨.

فأوحى الله إليه: لئن قلت آه محوتك من ديوان النبوَّة، هلا التجأت إلينا وقد وكلناك إليها، فقطعوه وهو ساكت. وأمر الله الملائكة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بفَلَسْطِيَّة، وهي التي تسمَّى اليوم سَبْسَطية بأرض نابلس.

وذكر ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: أن زكريا مات على فراشه ولم ينشر، والذي نشر إنما هو شعيا وقد ذكرناه. والأول أصحُّ.

وعامَّة المؤرخين على أن زكريا نشر قبل مقتل يحيى، إلا هارون بن المأمون فإنه قال: قُتِلَ يحيى وزكريا في الحياة، فهرب إلى بستان، فنادته شجرة: يا نبي الله، إلى هاهنا، وانفرجت له، فتبعوه فشقوه. والأول أصح، وقد نص عليه السدِّي والكلبي وابن إسحاق وقالوا: قتل زكريا وليحيى سبع سنين، وما نُبىء إلا بعد قتل أبيه[1].

فصل يتعلق بيحيى عليه السلام

ذكر هارون بن المأمون في تاريخه: أنَّ يحيى عليه السلام لما ولد رفع إلى السماء، فكان على باب الجنة حتى فُطِمَ، ثم أنزل إلى أبيه، فكان البيت يضيء بنوره، وكان حسن الصورة، قصيراً، قليل الشعر، مقرون الحاجبين.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وفي سنه يومئذٍ قولان:

أحدهما: ثلاث سنين، قاله قتادة. والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس[2].

فإن قيل: فما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف نُبِّىء يحيى وهو صغير؟

فالجواب: أنَّ الله يختص برحمته من يشاء، وكان ذلك من خصائصه، وهذا هو الجواب عن عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واجتهاد ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الفهم.

وقال ابن عباس: كان الصبيان يقولون له: هلم لنلعب، فيقول: ما خلقنا للَّعِب، وإنما خلقنا لِلْعَبٍّ، يعني: النقل[3].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٣، و«البداية والنهاية» ٢/ ٥٢.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[مريم: ١٣] أي: ورحمة، وقال ابن عباس: ما أدري ما الحنان، إلا أن يرحم الله عباده ويتعطف عليهم.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾[مريم: ١٥] أي: سلام له.

وروى قتادة عن الحسن قال: التقى عيسى ويحيى، فقال له عيسى: استغفر لي فأنت خير مني. فقال له يحيى: وأنت كذلك. فقال عيسى: أنت سَلَّمَ الله عليك، وأنا سلمت على نفسي[١]. يشير إلى قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾[مريم: ٣٣]، وقيل ليحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾.

وقيل: كان بينهما ثلاث سنين، يحيى قبله. وهو وهم، بل كان في زمانه.

وقال ابن عباس: كان طعام يحيى قلوب الشجر والعشب، ويخالط الوحش، ويلبس الشعر والوبر، ولا يأنس ببني آدم، ولم يكن له بيت، ولا عبد، ولا أمة، وما ضحك قط إلا متبسماً.

وذكر أبو نعيم في «الحلية» عن وهيب بن الورد قال: كان يحيى في وجهه خطان أسودان من البكاء، فكان أبوه إذا رآه يبكي يقول: يا إلهي، إنما سألت الولد لتقرَّ به عيني، وما أراني إلا وقعت في العناء. فيقول له يحيى: يا أبة، أنت أخبرتني عن جبريل أنه قال: إن بين الجنة والنار عقبة لا يقطعها إلا بكاء العين[٢]. وفي رواية: فيبكي زكريا معه.

وقال وهب بن منبه: بكى يحيى حتى بدت أضراس فيه فقالت أمه: يا بني، لو صنعتُ لك لِبْداً. فقال: اصنعي ما بدا لك. فصنعت له لِبْداً، فكان إذا قام إلى الصلاة يبكي حتى يبل اللِّبْد، فتقف أمه فتعصر اللِّبْد، فإذا رأى دموعه على ذراعيها رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم، هذه دموعي وهذه أمي وإنا عبيدك وأنت أرحم الراحمين[٣].

وقال السُّدي: كان زكريا إذا تكلم على الناس نظر يميناً وشمالاً، فإن رأى يحيى لم

(١) انظر «زاد المسير» ٥/ ٢١٥.

(٢) «حلية الأولياء» ٨/ ١٤٩.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.

يذكر جنة ولا ناراً[١].

وقال ابن المسيب: كان يحيى عليه السلام يضرب لبني إسرائيل الأمثال:

مثل في التوحيد، قال: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ومثله: كرجل اشترى عبيداً من خالص ماله وأسكنهم داراً له ودفع إليهم مالاً ليتجروا به ويأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ويؤدي إليه فضل الربح، فدفعوه إلى عدوٍّ سيدهم.

مثلٌ في الصلاة والمصلي، قال: مثله كرجل استأذن على ملك فأذن له فدخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه وجعل الرجل يلتفت يميناً وشمالاً، فأعرض عنه الملك ولم يقض له حاجة.

مثلٌ في الصيام، قال: مثله كرجل لبس جبة للقتال وأخذ سلاحه وخرج إلى عدوِّه فلم يصل إليه العدو ولم يعمل فيه السلاح.

مثلٌ في الذكر، مثله: كقوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا أقبل عدوُّهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم، فكذا الشيطان لا يقدر على ذاكر لله تعالى[٢].

قلت: وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في «المسند» حديثاً بمعناه فقال: حدثنا عفَّان بإسناده عن الحارث الأشعري أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمرَ يَحيى بنَ زكَرِيَّا بِخَمسِ كَلِمات، أن يَعملَ بهِنَّ، ويأمُرَ بَنِي إسرائيلَ أن يعمَلُوا بِهِنَّ، فكادَ يُبطِيء، فَقالَ له عيسى بنُ مريمَ: إنَّك قد أُمِرتَ بِخَمسِ كَلِمات أن تَعملَ بِهِنَّ وتأمُرَ بَنِي إسرائيلَ أن يعملُوا بِهِنَّ، فإمَّا أن تُبلغَهُنَّ، وإمَّا أن أُبلِّغَهُنَّ. فقال: يا أخي، إنِّي أَخشَى إن سَبقتَنِي أن أُعذَّبَ أو يُخسفَ بي. قال: فَجمعَ يَحيى بنُ زكريا بَنِي إسرائيلَ في بَيتِ المقدِس، حتى امتلأ المسجدُ، فَقُعِدَ على الشُّرَفِ، فَحمدَ الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قالَ: إنَّ الله أمَرَني بِخمسِ كَلماتٍ أن أعمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكُم أن تَعملُوا بِهِنَّ.

وأوَّلُهُنَّ: أن تعبُدوُا الله ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً، فإنَّ مَثَلَ ذلِك مَثَلُ رجلٍ اشتَرى عبداً من خالصِ مالِهِ بوَرقٍ أو ذَهبٍ، فَجَعلَ يَعملُ ويُؤدِّي غَلَّتَهُ إلى غَيرِ سيِّدِه، فأيكم يَسرُّه أن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

يكُونَ عَبدُه كَذلِك، وإنَّ الله خَلَقكُم، ورزَقَكُم، فاعبُدُوه، ولا تُشرِكُوا به شَيئاً.

وآمُرُكُم بالصَّلاةِ، فإنَّ الله يَنصِبُ وجهَهُ لِعبدِهِ ما لم يَلتَفِت، فإذا صَلَّيتُم فلا تَلتَفِتُوا.

وآمُرُكُم بالصِّيامِ، ومَثَلُ ذَلِكَ كرجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِن مِسكٍ في عِصَابةٍ، كُلُّهُم يَجِدُ رِيحَ المِسكِ، وإنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِندَ الله أَطيَبُ من رِيحِ المِسكِ.

وآمُرُكُم بالصَّدقَةِ، فإنَّ مَثَلَ ذلِكَ كَمَثلِ رَجُلٍ أسرَهُ العَدُوُّ، فَشدُّوا يَدَيهِ إلى عُنُقِهِ[1] وقدَّمُوهُ ليَضرِبُوا عُنُقَهُ، فَقالَ لَهُم: هَل لكُم أن أَفتَدِيَ نَفسِي مِنكُم؟ فَجَعلَ يَفتَدِي نَفسَهُ مِنهُم بالقَلِيلِ والكَثِير حَتَّى فَكَّ نَفسَهُ.

وآمُرُكُم بِذِكرِ اللهِ تعالى كَثِيراً، وإنَّ مَثلَ ذَلِكَ كَمَثلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سرَاعاً في أثرِهِ، فأتَى حصناً حَصيناً، فَتَحصّنَ فيه، وإنَّ العَبدَ أحصَنُ ما يكُونُ مِن الشَّيطانِ إذا كَانَ في ذِكرِ الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنَا آمُرُكُم بِخَمسٍ اللهُ أمَرني بِهِنَّ: الجَماعَة، والسَّمع، والطَّاعَة، والهِجرَة، والجِهاد في سَبيلِ الله، فإنَّهُ مَن خَرجَ مِن الجَماعَةِ قِيْدَ[2] شِبرٍ فقد خَلَعَ رِبقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقِهِ إلا أن يَرجِعَ، ومَن دَعَا بِدَعوى جَاهِلِيَّةٍ، فَهُو مِن جُثَا جَهنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، وإنْ صَامَ وصَلَّى؟ قَالَ: «وإن صَامَ وصَلَّى وزَعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادعُوا المسلمِين بأسمائِهم بَل بِما سمَّاهُم الله تعالى المسلمين المُؤمنين عِبَادَ اللهِ»[3].

و«جُثَا» بجيم: من قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧٢]. وهذا الحارث بن الحارث أبو مالك الأشعري أخرج له أحمد في «المسند» هذا الحديث ولم يخرج له غيره. وقد ذكرنا وقائع يحيى مع الشيطان في صدر الكتاب.

(١) في (ك) و(خ): عنده والمثبت من (ب).

(٢) في (ك) و(خ): قدر والمثبت من (ب).

(٣) «مسند أحمد» (١٧١٧٠).

ذكر مقتل يحيى عليه السلام

واختلفوا فيه:

قال وهب: بعث عيسى عليه السلام يحيى عليه السلام في نفرٍ من الحواريين يعلِّمون الناس الأحكام، وكان فيما نَهَوهم عنه نكاح الأخت، وابنة الأخت، وكان لملكهم ابنة أخ يُعجبُ بها، فأراد نكاحها، فمنعه يحيى عليه السلام، فسكر يوماً، وقال لها: اسألي حاجتك. وكان لها كل يوم حاجة مقضية. فقالت أمها: اسأليه رأس يحيى في طشت. فامتنع، فألحت عليه، وغاب عقله، فراودها فامتنعت، فأمر بذبحه، فذبح وجيء برأسه في طشت، والرأس يتكلم، ويقول: لا يحل لك نكاحها. فلما أصبحوا إذا الدم يغلي، فألقوا عليه التراب وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة، فغزاهم ملك، فأقام مدة يحاصر بيت المقدس، فلم يقدر عليهم، فعزم على الرجوع، فخرجت إليه عجوز من بني إسرائيل، فقالت: أتحب أن تفتح المدينة؟ اقسم عسكرك أربعة أرباع[1] في كل ناحية ربعاً، وارفع يديك إلى السماء وقل: إنا سنفتحك بالله وبدم يحيى بن زكريا. فإذا فتحتها فاقتل على دمه حتى يَسكُن، فإن حيطان البلد تتساقط. ففعل، ففتح الله البلد ودخل[2]، فجاءت بهم العجوز فأرتهم موضع الدم وهو يفور، فقتل عليه سبعين ألفاً حتى رقأ، فقالت له: ارفع يديك، فإنَّ الله إذا قُتِلَ نبيٌّ لم يرض حتى يقتُلَ من قتله ومن رضي بقتله[3].

وقال السُّدي: واسم الملك الذي أخذ بثأر يحيى: خردوس. وقيل: بخت نصر، وهو وهم.

وقال الربيع بن أنس: كان للملك ابنة، فرأت يحيى فأحبته، فأرسلت إليه تراوده عن نفسه، فأبى، فراودته مراراً وهو يمتنع، فخافت أن يشيع ذلك عنها، فقالت لها أمها: إذا سألك أبوك حاجة، فقولي: رأس يحيى. فقالت له: تذبح يحيى. وندمت، و جعلت

(١) في (ب) و(خ): أقسام.

(٢) في (ب): ودخلوا.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨١ـ٣٨٢، و«الكامل» ١/ ٣٠٢.

المرأة تقول: ويل لها ويل لها. حتى ماتت[١].

واختلفوا في اسمها: فقيل: أزبيل. وقيل: ربه. وقيل: هيردونا. وكانت بغيًّا. قال وهب: قتلت في يوم واحد سبعين نبياً آخرهم يحيى عليه السلام وهي مكتوبة في «التوراة»: قتَّالة الأنبياء. ولها منبر في النار تعذَّب عليه ليسمع صراخها أهل النار.

وقال جدي في «التبصرة»: فهي أول من يدخل جهنم. وحكى ما ذكرناه[٢].

وقال الهيثم: اسم الملك الذي أمر بذبح يحيى عليه السلام: هردوش.

واختلفوا في أيِّ مكانٍ ذُبح يحيى:

فعامَّةُ المؤرخين على أنه ذُبحَ بالقدس بصهيون.

وقال مقاتل: على صخرة بيت المقدس في هوى زانية[٣].

وقال وهب: كان قائماً يصلي، فذُبح، فأخرب الله بيت المقدس، وسلَّطَ على بني إسرائيل الجبابرة، فأخربوا الشام كله. وقال قتادة: ذُبح يحيى بدمشق[٤]. وقيل: في موضع المسجد الصغير عند باب جيرون[٥]. وقال ابن سمعان: وكان ذلك قبل رفع عيسى عليه السلام بسنة ونصف ثم رفع بعد ذلك. قال: وكان الدم يفور، فصعد الملك إلى درج جيرون عند الكنيسة، وجعل يجيء بعشرة عشرة، فيضرب رقابهم حتى قتل عليها سبعين ألفاً، فجاء بعضُ أنبياء بني إسرائيل، فقال: أيها الدم، أفنيت الناس. فسكن[٦].

وكان الحسن يقول: من هوان الدنيا على الله أن يحيى قتلتهُ زانية[٧].

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤٢.

(٢) «التبصرة» ١/ ٣٤٢.

(٣) انظر «البداية والنهاية» ٢/ ٥٥.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٢٤١.

(٥) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٣٠٤.

(٦) انظر «البداية والنهاية» ٢/ ٥٥.

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٧٤) من طريق الهزلي، عن الحسن، عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف، وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه.

ولما حُوصِر عبد الله بن الزبير ﷺ قال ذلك[١].

واختلفوا في موضع رأس يحيى عليه السلام على أقوال:

أحدها: أنه دفن مع جسده بالقدس.

والثاني: أنه حُمل إلى عند أبيه فدفن بفلسطيَّة.

والثالث: بجامع دمشق.

فروي عن زيد بن واقد وكان الوليد قد وكَّله على عمارة جامع دمشق قال: وجدنا مغارة فعرَّفنا الوليد، فجاء في الليل وبين يديه الشمع، فنزلها فإذا هي كنيسة ثلاثة أذرع في مثلها، وإذا فيها صندوق، ففتحناه، وإذا بِسفْطٍ فيه رأسٌ مكتوب عليه: هذا رأس يحيى بن زكريا، والبشرة والشعر بحاله لم يتغيَّر، فردَّه الوليد إلى مكانه، وقال: اجعلوا عليه عموداً مسفطاً. قال زيد بن واقد: فهو العمود المسفط[٢].

الرابع: من ركن القُبَّة الشرقي. وقال ابن مسعود: كانت بنو إسرائيل قتلة الأنبياء؛ قتلوا في أول يوم من الأيام ثلاث مئةِ نبيٍ، وقامت سوق بقلهم في آخر النهار[٣]. وقال ابن عباس: ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان بين موسى وعيسى خلق من الأنبياء لا يحصون، وما صُدِّق نبيٌّ ما صُدِّقْتُ؛ إنَّ من الأنبياء من لم يتْبعْهُ من أُمَّته إلَّا الرجل والرجلان»[٤].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣/ ٥٥٥.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٢٤١.

(٣) في (خ) و(ك): الزمان، والمثبت من (ب).

(٤) أخرج شطره الثاني ـ من قوله ﷺ: «وما صدق نبي . . .» ـ مسلم (١٩٦) (٣٣٢)، وابن حبان (٦٢٤٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.